الحركة القومية الارلندية

منذ نشأتها الى اليوم

للأستاذ محمد عبد الله عنان

.....

المسألة الارلندية من أخطر وأعقد مسائل الامبراطورية البريطانيـــة . وخطورتها اليوم تبدو بنوع خاص ، حيث تأهب ارلنده لتحقيق الغاية التي تعمل لها منذ أحقاب . وهي التحرر من كل فروض التبعية البريطانية واعلان نفسها جمهورية حرة موحدة. وارلنده اليوم من الوجهة الدولية دولة مستقلة ذات سيادة ، ونعتها الدولي هو : « دولة ارلنده الحرة » Irish Free State ولكنها ما زالت طبق نصوص المعاهدة التي أنشأتها دولة حرة ، تدين ببعض فروض الولاء والتبعية لبريطانيا العظمى

واذا كانت ارلنده تعتبر من الوجهة الجغرافية إحدى الجزر البريطانية ، وتجاور انكلترا واسكتلنده بجاورة قوية ؛ فهي مع ذلك وحدة جنسية وتاريخية مستقلة . فالشعب الارلندي لا يمت بنسب أو صلة للشعب الانكليزي ، بل يرجع الى أصول جنسية أخرى ، وله خواصه ومميزاته وتقاليده الخاصة . وله أيضاً لغته الخاصة الجايلقية أو الارلندية القديمة التي غدت لغة رسمية لدولة ارلندة الحرة ؛ وعاطفة الاستقلال قديمة راسخة في الشعب الارلندي . فمنذ القرن الحادي عشر كانت ارلنده مملكة مستقلة قوية تهدد جيرانها بالغزو والسيادة ولكن انكلترا أدركت منذ البداية خطر استقلال ارلنـــده وقوتها على استقلالها وكيانها ، وعملت الملكية الانكليزية منذ أواخر القرن الثاني عشر على فتح هذه الجزيرة القوية واستعمارها ، فغزاها هنري الثاني وافتتحها (١١٧٢ م) وبدأ الانكليز باستعمارها ؛ وتوالت حملات ملوك انكلترا على الجزيرة الثائرة لاستقلالها . ولكن ارلنده لم تهدأ لها من ذلك الحين ثائرة . وتاريخ ارلنده حافل منذ القرن السادس عشر بأخبار هـذه الثورات القومية العديدة التي كان الشعب الارلندي يضرم لظاها من آن لآخر طلباً لحريته واستقلاله ، والتي كانت انكلترا تسحقها دائماً بمنتهى الشدة والقسوة . وكانت انكلترا تحكم ارلنـده طوال هذه القرون بيد من حديد ، ولكن لم تفلح قط في كسب محبة الشعب الارلندي أو التأثير في عواطفه الوطنيـــة وصرفه عن طلب استقلاله

ولما رأت السياسة الانكليزية بعد عدة قرون أن وسائل الشدة فشلت نهائيا في حكم هذا الشعب العريق في وطنيته واستقلاله جنحت الى نوع من اللين والمودة . وفي سنة ١٨٠٠ ، أصدرت الحكومة البريطانية قانون الاتحاد الارلندي ، وبمقتضاه اعتبرت ارلنـــده جزءا من « المملكة المتحدة » (بريطانيا العظمى) تمثل في البرلمان البريطاني بثمانية وعشرين عينا وأربعة أساقفة ، ومائة عضو في مجلس العموم . وتدفع ارلنده للخزينة البريطانية مبلغاً معيناً . ولها حرية التجارة ، وحرية الاحتفاظ بنظمها القضائية والتنفيذية الخاصة . وكان لهذه الخطوة أثرها في تهدئة الشعب الارلندي . ولكن الحركة الاستقلالية لبثت قوية تحين فرص العمل . ولم يصف قط كدر العلائق بين بريطانيا وارلنده . على أن حركة قوميـــة جديدة معتدلة ظهرت : قوامها المطالبة بالحكم الذاتي أو الحكم الداخلي لارلنده (Home Rule) وقويت هذه الحركة في أواخر القرن التاسع عشر بقيادة الزعيم الوطني بارنل ، وغلب هذا الاتجاه في الحركة الوطنية الارلندية حيناً . وحاول حزب الاحرار أن ينتهز هذه الفرصة المعتدلة لتحقيق الاماني الارلندية وكسب صداقة الشعب الارلندي ، فقدم غلادستون رئيس الحكومة يومئذ الى البرلمان مشروع الحكم الذاتي الارلندي . ولكنه رفض مرتين (ســـنة ١٨٨٦ و ٩٣) ؛ وعاد الاحرار لاستئناف السعي قبيل الحرب ، فقدم متراسكويث رئيس الوزارة مشروع الحكم الذاتي الارلندي وصودق عليه سنة ١٩١٤ . ولكن نشوب الحرب الكبرى حال دون تنفيذه . وهنا تبدأ مرحلة جديدة في حركة الاستقلال الارلندية

٢

وفي بداية الحرب بذل الزعماء الارلنديون وعلى رأسهم (جون ردموند) كل جهد لمعاونة بريطانيا العظمى ؛ وتطوع كثير من الارلنديين في الجيش البريطاني . ولكن الاحقاد القومية القديمة مالبثت ان اضطرمت ، ووثبت الحركة الاستقلالية مرة أخرى ، وقامت ثورة ارلندية جديدة في سنة ١٩١٦ — كان مدبرها حزب « السين فين » الجمهوري الذي اسس قبل ذلك بقليل ليعمل على استقلال ارلنده ، فاخمدها الانكليز بشدة ، وفي نهاية الحرب توفي جون ردموند ، فزادت علائق البلدين سوءا واضطرابا ، وقامت

الجمعيات السرية الاستقلالية فى جميع انحاء ارلنده ، وبرز حزب السين فين فى الطليعة

وهنا نقف قليلا للتعريف بحزب السين فين هذا الذى غدا روح الحركة القومية الارلندية ، وكتب لنفسه فى سير الجهاد الوطنى صفحا خالدة . فى سنة ١٩١٥ أسس فريق من الزعماء الارلنديين حزبا أو هيئة وطنية جمهورية باسم « السين فين » (Sin Fein) ومعناها « نحن فقط » : وغايتها تحرير ارلنده تحريرا مطلقا ، وفصلها عن بريطانيا العظمى فصلا تاما . وكان شعار هذه الحركة منذ البداية الجرأة ، والتضحية . فأعلن « السين فين » انهم « الحكومة المؤقتة للجمهورية الارلندية » وانشأوا قوة وطنية اطلق عليها « المتطوعة الارلنديون » ونظموا ثورة سنة ١٩١٦ . ولبث « السين فين » اثناء الحرب يناصبون بريطانيا العداء . ولكن انكلترا استبرت اثناء الحرب تحكم ارلنده بمنتهى الشدة ، وتطارد الحركة القومية بمنتهى العنف . ولكن دعوة « السين فين » مازالت تزداد قوة وانتشارا حتى عمت سواد الشعب الارلندى . وظهرت قوة الحركة فى انتخابات سنة ١٩١٨ إذ سقط معظم الزعماء القدماء انصار فكرة التوفيق والحكم الذاتى : وفاز السين فين فوزا باهراً . ورأت السياسة البريطانية نفسها فى مأزق حرج لأن السين فين رفضوا مشروع الحكم الذاتى بقوة وتمسكوا بالاستقلال التام ، وانشأوا « حكومة الجمهورية الارلندية » والبرلمان الارلندى الوطنى

وهنا تدخل المسألة الارلندية فى طور جديد ، وتضطر السياسة الانكليزية مرة أخرى للبحث عن سبيل لأوضاع ارلندة ، أو بعبارة أخرى لتخدير حركتها القومية . وكان الحكم يومئذ مايزال فى يد الاحرار ، وهم الذين سعوا الى حل المسألة الارلندية بمنح الحكم الذاتى لارلنده . ففى سنة ١٩٢٠ اتخذت الحكومة البريطانية برآسة لويد جورج فى المسألة الارلندية خطوتها الجديدة فاصدرت « قانون الحكومة الارلندية » بمنح الاستقلال الذاتى لارلنده الجنوبية واستثنيت ألستر أو ارلنده الشمالية لاختيارها البقاء مع بريطانيا العظمى . ولكن السين فين رفضوا هذا القانون ورفضه البرلمان الارلندى الوطنى (الديل ايران) (Dail Eireann) بقوة واضطرمت ارلنده بثورة جديدة ، وشهر السين فين على انكلترا حربا عنيفة ، ونظموا العصابات المسلحة فى انحاء ارلندة ، وتوالت حوادث الفتك والاغتيال على كبار الانكليز والموالين لهم فى ارلندة ، وابدى رجال السين فين بسالة وتضحية نادرتين . وقابل الانكليز الاعتداء بمثله وارتكبت حوادث قسوة عديدة ، وهلك من الفريقين فى تلك الحوادث عدد من الزعماء والرجال البارزين . ولم تبد الحركة الارلندية قط بمثل هذا العنف ، ورأت الحكومة البريطانية رجالها وجندها يسقطون تباعا فى ارلنده . ورأى فريق من الزعماء الارلنديين ان العنف صائر بالبلاد الى الخراب والدمار ، فاتفق الفريقان بعد نحو عام من تلك الحرب المضطرمة على عقد هدنة يحاولان خلالها التفاهم والمفاوضة ، فهدأت البلاد حينا ، وعقدت عدة مؤتمرات للمفاوضة بين ممثلى السين فين وممثلى انكلترا . وانتهت فى ديسمبر سنة ١٩٢١ بعقد معاهدة عرفت بمعاهدة لندن : وبمقتضاها اعترفت انكلترا باستقلال ارلنده الجنوبية ومنحها نظام الدومنيون (الاملاك المستقلة) مع احتفاظ بريطانيا ببعض رسوم السيادة على ارلنده : كفرض يمين الطاعة للعرش ، وجعل استئناف الاحكام النهائى امام مجلس الملك الخاص ، وتعيين حاكم يمثل التاج . ووافق البرلمان الارلندى (الديل) على المعاهدة فى يناير سنة ١٩٢٢ : ولكنها لم تصادف قبولا من الجناح الجمهورى المتطرف الذى يقوده الزعيم دى فاليرا ، فرفض المعاهدة واستقال دى فاليرا من رآسة البرلمان احتجاجا عليها ، فخلفه أرثر جريفث فى رآسة البرلمان وأتم مع زميله ميخائيل كولنس المفاوضات مع انكلترا . وعلى اثر عقد المعاهدة انسحبت القوات البريطانية من ارلندة الجنوبية ، واقيمت حكومة مؤقتة برآسة ميخائيل كولنس ، وقامت دولة ارلنده الحرة طبقا لنصوص المعاهدة . واجريت فى يونيه انتخابات جاءت باغلبية فى صف المعاهدة ، ولكن الجناح الجمهورى المتطرف لبث على موقفه يعارض المعاهدة بكل شدة ، ودب الخلاف فى صفوف « السين فين » ، وأخذ كل فريق يرمى الآخر بالمروق والخيانة ، واستعملت الحكومة الجديدة العنف فى قمع خصومها ، فرد هؤلاء بالعنف والعدوان ، واغتيل كولنس فى اغسطس وتوفى جريفيث قبله بايام ، فتولى الزعيم كوزجريف رآسة الحكومة ، وشدد على الجمهوريين ووضع الدستور الارلندى الجديد فى دائرة معاهدة لندن : ونص على ان الشعب الارلندى هو مصدر جميع السلطات ، وعلى ان البرلمان توأمه الملك ومجلسان هما « الديل » ومجلس الشيوخ ، وعلى ان اللغة الارلندية (الجايلقية) هى لغة الدولة . وانشىء جيش ارلندى وطنى . وعين الزعيم الارلندى هيلى حاكما عاما (ثم خلفه الزعيم ماكنيل) ليمثل حقوق التاج

— ٣ —

استطاعت السياسة البريطانية ان تجعل من المعاهدة الارلندية اداة لتمزيق الحركة القومية الارلندية ، وشطر السين فين الى

فريقين خصيمين وفق ماقدمنا ، وليث فريق الاغلبية وهو الجناح الذى قبل المعاهدة وعمل لتنفيذها قابضا على ناصية الحكم بزعامة مستر كوزجريف رئيس الحكومة الارلندية مدى اعوام . وليث فريق الاقلية بزعامة مستر دى فاليرا موضع الاضطهاد والمطاردة ، وسارت دولة ارلندة الحرة فى الطريق الذى رسمته معاهدة لندن ، والتحقت بعصبة الامم منذ سنة ١٩٢٣ . ولكن حزب السين فين الجمهورى لم يفتر عزمه ولم يتحول عن سياسته ، وكان الاضطهاد الذى يلاقيه من عوامل تقويته وازدياد انصاره ، وجاءت انتخابات سنة ١٩٢٧ مؤيدة لقوته ونفوذه ، فنالت الحكومة فيها أقلية ، ونال الجمهوريون اغلبية ، ولكن الرئيس كوزجريف استطاع ببعض التدابير السياسية والبرلمانية أن يحتفظ بالحكم اعواما أخر . وفى فبراير سنة ١٩٣٢ حصل الجمهوريون على اغلبية جديدة ، فانسحب كوزجريف ، واستولى الجمهوريون بزعامة دى فاليرا على الحكم ؛ وبدأ عهد جديد من النضال الرسمى بين انكلترا وارلندة هو الذى نشهده اليوم

ويجب ان نذكر كلمة عن دى فاليرا زعيم ارلندة الحالى . فقد ولد ايمون دى فاليرا سنة ١٨٨٢ فى نيويورك من اب اسبانى وأم ارلندية ، ودرس فى معاهد ارلندة ، وتخصص فى العلوم الرياضية ونال عدة اجازات جامعية ، وتولى التدريس حينا ، ثم انتظم فى الحركة الوطنية وخاض غمار السياسة ، وانضم الى حزب السين فين ، وظهر فى زعامته بسرعة ، وكان من زعماء ثورة سنة ١٩١٦ ، فأسر وقضى عليه بالاعدام وخفف الحكم الى الاشغال الشاقة المؤبدة . ثم أفرج عنه عند صدور العفو العام فى سنة ١٩١٧ وعاد فتزعم حركة السين فين واصبح قائدها ورأسها المدبر ، وانتخب رئيسا لجمهورية ارلندة ، فاعتقل ثانية ، ثم فر فى سنة ١٩١٩ الى امريكا وعاد بعد عامين الى ارلندة ، واشترك فى مفاوضات معاهدة لندن ، ولكنه لم يقبل النتائج التى انتهت اليها ؛ وشهر الخصومة على المعاهدة منذ عقدها ؛ واعلن الثورة على دولة ارلندة ، فقبض عليه فى اغسطس سنة ١٩٢٣ ، وافرج عنه بعد عام ، فعاد الى النضال السياسى ، ودخل برلمان سنة ٩٢٧ على رأس كتلة جمهورية قوية ، وتولى رياسة الحكومة الارلندية منذ اوائل سنة ١٩٣٢

وابدى دى فاليرا منذ قبض على ناصية الحكم عزمه على تنفيذ البرنامج القومى الجمهورى ، وخلاصته العمل على تحقيق الاستقلال التام لارلندة الموحدة فى ظل النظام الجمهورى ؛ والغاء كل مافرض عليها من رسوم التبعية البريطانية . ذلك لأن معاهدة لندن شطرت ارلندة الى شطرين : ارلندة الشمالية أو ألستر واعمالها ، وقد بقيت فى حوزة بريطانيا العظمى : ويبلغ سكانها مليون وربع نسمة : وتشمل اغنى بقاع ارلندة وبها أهم المراكز الصناعية وهى بروتستانتية المذهب . وارلندة الجنوبية وهى التى تناولتها المعاهدة وجعلتها دولة حرة : ويبلغ سكانها ثلاثة ملايين : وهى بلد زراعى : وتسودها الكثلكة . فمعاهدة لندن تمزق الوحدة الارلندية فى الواقع . ولكن يرد على ذلك ان ارلندة الشمالية قد استعمرها الانكليز منذ بعيد وهى تود البقاء كجزء من المملكة المتحدة ، وهذا مالا يسلم به الشعب الارلندى

واما فروض التبعية البريطانية التى يراد الغاؤها فهى : (١) يمين الولاء والطاعة للتاج البريطانى (وقد الغى ، بالفعل بقانون اصدرته حكومة دى فاليرا) و (٢) استئناف احكام المحكمة الارلندية العليا الى مجلس الملك الخاص و (٣) حق الحاكم العام فى تحديد الابواب التى تنفق فيها الاموال العامة ، وحق التصديق على القوانين . واخيرا يراد الغاء الديون الزراعية التى تلزم ارلندة باداتها لانكلترا ، وتراها ارلندة ظالمة مرهقة ولا يحق اداؤها لان الاراضى التى تؤدى عنها ملك للشعب الارلندى

وقد شهدنا الفصل الأول من هذا النضال الذى تشهره اليوم ارلندة على بريطانيا العظمى حينما قدم دى فاليرا قانون الغاء يمين الطاعة الى البرلمان الارلندى ، وامتنع عن اداء الاقساط الزراعية وقام بين البلدين من جراء ذلك جدل سياسى عنيف ؛ واتخذت بريطانيا اجراءات اقتصادية شديدة ضد ارلندة : وعمد دى فاليرا الى المثل . واليوم نشهد فصلا آخر : فان دى فاليرا يريد اعلان الجمهورية فى ارلندة ؛ وقد وجه بالفعل مذكرة رسمية بذلك الى الحكومة البريطانية يطلب فيها ايضاح موقفها فيما لو تم هذا الاجراء ، فردت عليه الحكومة البريطانية بانها لا ترى ابداء الرأى فى احتمالات لم تقع وتستبعد وقوعها لأنها تكون خرقا للمعاهدة المعقودة

ولكن دى فاليرا ماض فى طريقه ، مصر على سياسته ، وان كان كان يجد معارضة لهذه السياسة من فريق كوزجريف ، وفريق الجنرال « أو — دوفى » (القمصان الزرقاء) اذ يخشيان عواقب هذا العنف على مصاير ارلندة ومصالحها الاقتصادية ، وهذه المصالح أشد ما تكون ارتباطا ببريطانيا العظمى وتوقفا عليها

فهل ينجح دى فاليرا فى تحقيق برنامجه القومى المتطرف ، وانشاء ارلندة الجديدة مطلقة الاستقلال والحرية فى ظل النظام الجمهورى ؟

هذا ما سيكشف المستقبل القريب عنه .